المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الخميس غرة جمادى الثانية سنة ١٣٢٠ — ٤ ستمبر (ايلول) سنة ١٩٠٢)

الاضطهاد في النصرانية والإسلام

(المقالة الثانية لذلك الاستاذ الحكيم والفيلسوف العليم)

ذكرت الجامعة في الجزء الثامن من السنة الثالثة في سياق الكلام على ما جرى لابن رشد ان للناس آراء في: هل الدين المسيحي أوسع صدرا في احتماله مجاورة العلم والفلسفة او ان الدين الاسلامي هو الارحم خلقا والاوسع حلما من الدين المسيحي في قبول أهل النظر في الكون اذا نزلوا بداره، ولاذوا بجواره، وذكرت أن للقائلين بتسامح الدين المسيحي مع العلم وأهله دون الدين الاسلامي أن فولتير وديدرو وروسو ورنان قالوا فيما يضاد الدين ما قالوا ولم يصابوا بضرر وابن رشد لم يقل شيئاً سوى انه قرر ما قال أرسطو واوضحه مع تصريحه بسلامة اعتقاده ومع ذلك اهين وبصق على وجهه. وللقائلين بسعة حلم الاسلام ان الاسلام لم يحكم بإحراق احد لمجرد الزيغ في عقيدته وكم حكمت المسيحية بذلك

ثم جعلت أهل الرأي الأول آخر من يتكلم وقالت : « فيرد عليهم الأولون بقولهم : هل يجب ان يكون التسامح مع القريب فقط أم مع القريب والغريب معاً ؟ ثم الا تذكرون الحروب والفتن التي قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية فأضعفت امتهم ، وفرقت كلمتهم ، فهل يجوز ان تسموا محاربة شخص واحد وإعدامه (محاربة للإنسانية) ولا تسموا كذلك محاربة شعب لشعب وأمة لأمة » اهـ

ثم قالت الجامعة إنها لا تفصل بين القولين ، ولكنها فصلت فيهما فصلين ، الأول في قولها : « إنا نرى ان السلطة المدنية في الاسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معاً وبناء على ذلك فان التسامح يكون في هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية فان الديانة المسيحية قد فصلت بين السلطتين فصلاً بديعاً بدلالة المسيح الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقي وذلك بكلمة واحدة : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وبناء على ذلك فان السلطة المدنية في هذه الطريقة اذا تركت للسلطة الدينية مجالا للضغط على حرية الأفراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلا عن قيام وسق الارض بدمائهم البريئة فانها تجني جناية هائلة على الانسانية وعلى ذلك لا يكون في هذه الطريقة من التسامح أكثر مما في تلك اذا بدا منها نقص ولو كان هذا النقص أخذ من نقص شقيقتها لانه لا نقص أعظم من نقص القادر على التمام » والفصل الثاني في قولها : « ان العلم والفلسفة قد تمكنا الى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي ولذلك نراهما سيدا في تربة اوربا وأينع وأثمر التمدن الحديث ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الاسلامي وفي ذلك دليل واقعي على ان النصرانية كانت أكثر تسامحاً » اهـ

الجواب الاجمالي

وإني أعجل في الجواب بما يلاقي هذين الحكمين اجمالا . أما الأول فان كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد من كل رأي بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة . قال في سورة البقرة « لا إكراهَ في الدين قد تبيَّنَ الرشدُ من الغيّ فمَنْ يكفرْ بالطاغوتِ ويؤمن بالله فقد استمسكَ بالعروةِ الوثقى لا انفصامَ لها والله سميعٌ عليم » وقال في سورة الكهف « وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمنْ ومن شاء فليكفرْ »

وأما الثاني فأسأل الجامعة في جوابه : اين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين ؟ وأين اولئك العلماء المضطهدون ؟ وأريد بالعلماء اولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو وروسو وامثالهم . وكيف ساغ لها ان تقول ما تقول وهي في ارض مصر ومصر بلاد اسلامية وحالها كما ترى ؟ فاذا أرادت شاهداً على حال المسيحية والعلم فلتمرَّ بنظرها اليوم على أسبانيا ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم . يمكنها ان تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين في مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وأميركان وهي مدارس دينية خصوصاً مدارس الجزويت . فهل يمكنني ان أجد طالبا واحداً مسيحيا في مدرسة دينية اسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أي ملة ؟ لا نجد الا قليلا منهم في مدارس الحكومة لعلمهم انها مدارس رسمية لم يقم بناء تعليمها على الدين . فهل سمع ان والدا اضطهد لانه بعث بولده الى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون ؟ الا يعد هذا من تسامح الاسلام مع العلم اليوم ؟

لولا ان موضوع كلامي محدود باعتبار التسامح بالنسبة الى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب الجامعة أن يوجد فى بلاده طائفتان تعد آحادهما بالألوف وتزعم كل منهما ان لها نسبة الى الاسلام وهى تعتقد بالا ينطبق على أصل من أصوله حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ولا تقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة . وأجمع فقهاء الأمة على انهما من قبيل المرتدين والزنادقة لا تؤكل ذبائح افرادهما ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات وإنما اختلفوا فى قبول توبة من تاب منهم ومن العلماء من قال لا تقبل توبته . وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ومضى عليهم ما يزيد على ثمانمائة سنة وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والاسلام فى أوج القوة . دخلوا فى حكم الأتراك وهم أيام كان ملك فرنسا يستنجد بملكهم وكانت عساكرهم على أسوار فينا . كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم وأسروا عقيدة تناقض عقيدتهم قد ظهروا باعمال تضاد أعمالهم وهم جيرانهم وتحت أيديهم وفى مكنتهم محوهم ومع ذلك عاشوا الى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين . وللمسلمين بينهم مصافون وأوداء فهل عهد مثل ذلك عن المسيحيين ؟

غير ان موضوع قولي محدود كما قلت فلا أخرج عنه وأراني نطقت فيه بكلمتي المجملة . ولكن لا يكفي لبيان ما عرضت به الجامعة فى قولها « هل يجب ان يكون التسامح مع القريب فقط او مع القريب والغريب الخ » ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به فى حكمها الا تفصيل تعرض فيه حالة الدينين مع العلم تحت نظر القارئ على وجه يمكن معه الحكم عن فهم ، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم

الجواب التفصيلي

أرى الجامعة جاءت في كلامها باربعة أمور آتي بها على حسب ترتيب السؤال في تعبيرها . (الأول) ان المسلمين قد تسامحوا لأهل النظر منهم ولم يتسامحوا لمثلهم من أرباب الاديان الأخر (الثاني) ان من الطوائف الاسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب الاعتقادات الدينية (الثالث) ان طبيعة الدين الاسلامي تأبى التسامح مع العلم وطبيعة الدين المسيحي تيسر لاهله التسامح مع العلم (الرابع) ان إيناع ثمر المدنية الحديثة إنما تتمتع به الأوربيون ببركة التسامح الديني المسيحي . فلا بد لي من الكلام على كل واحد من هذه الأمور الاربعة وابتدئ منها بالثاني لقلة الكلام عليه

نفي القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد

لم يسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين (الآخذين بعقيدة السلف) والأشاعرة مع الاختلاف العظيم بينهما ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين وأشاعرة — كما لم يسمع بان الفلاسفة الاسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها . نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج كما وقع من القرامطة وغيرهم وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد وإنما اشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الأمة . ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة . وما كان من حرب بين الأمويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة وهي بالسياسة أشبه بل هي أصل السياسة

نعم وقعت حروب في الازمنة الأخيرة تشبه أن تكون لأجل العقيدة

وهي ما وقع بين دولة إيران والحكومة العثمانية وبين الحكومة العثمانية والوهابيين ولكن يتسنى لباحث بأدنى نظر ان يعرف انها كانت حروبا سياسية ويبرهن على ذلك بالولاء الممكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف في العقيدة وبين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين

اما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة في بني العباس وأضعفت الأمة وفرقت الكلمة فهي حروب منشأها طمع الحكام وفساد اهوائهم وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم . ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم وارتخاء حبل التمسك به في أيديهم . وأكبر داء دخل على المسلمين في همهم وعقولهم انما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم . أقول « الجهلة » وأريد أهل الخشونة والفطرة الذين لم يهذبهم الاسلام ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم . ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم باحكامه لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين وما قرر الاولون وما اكتشف الآخرون في اليد الاخرى ذلك لآخرتهم وهذا لدنياهم وسادوا يزاحمون الاوربيين فيزحمونهم

مالنا وللحكام نعرض لهم ؟ الذي علي ان أقول ولا أخشى منازعا : إنه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة من العقائد أو على تركها . على ان هذا الأمر الذي جاءت به الجامعة والجأتنا الى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة لأن الكلام في التسامح الديني مع العلم لا في تسامح عقيدة مع عقيدة أو دين مع دين وإلا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها ما يستغرق أجزاء الجامعة بقية هذه السنة اذا أوجزنا ما استطعنا . هل أذكرها بما كان يقع

في القسطنطينية من سفك الدماء بين الارثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين ؟ هل أذكرها بحادثة برتلمى سنة ١٥٧٢ التي سفك فيها الكاثوليك دماء إخوانهم البروتستانت وأخذوهم في بيوتهم على غرة وقتلوهم نساء ورجالا وأطفالا . بماذا أذكر الجامعة من أمثال هذه الوقائع التي اسود لها لباس الانسانية ، وتسلبت لحدوثها البشرية ؟ هل يمكن لأحد أن يروي حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض لخلاف في العقيدة مهما عظم الاختلاف

معاملة المسلمين مع أهل العلم والفضل من كل ملة

ثم أرجع الى الأمر الاول من الامور الاربعة لأن الكلام عليه أول منه على الأمر الثالث . وانني لا أستدل على رعاية الاسلام للحكماء من المليين بالمقالة بقول كاتب مسلم وإنما أرجع في جميع ما أذكر الى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين وأذكر أسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم مالم يبلغه غيرهم

قال المستر درابر أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الاميركان : « ان المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا اليهم كثيراً من الاعمال الجسام ، ورقوهم الى المناصب في الدولة حتى ان هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه » (هو يوحنا ابن ماسويه الشهير) وقال في موضع آخر : « كانت ادارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء الى النسطوريين تارة والى اليهود تارة أخرى . لم يكن ينظر الى البلد الذي عاش فيه العالم ولا الى الدين

الذي ولد فيه بل لم يكن ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة. قال الخليفة العباسي الاكبر المأمون : « ان الحكماء هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لأنهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة ورفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة هم ضياء العالم وهم زينة قوانينه ولولاهم لسقط العالم في الجهل والبربرية » . وقال في موضع آخر : « ان العرب قد زخروا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين » . ولست في حاجة الى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس وأقاموا من المراصد وما حشدوا من الكتب الى المكاتب لأن هذا خارج عن بحثنا الآن وسيرد عليك شيء منه فيما بعد

بعض طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء بجاه

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء جيورجيس ابن بختيشوع الجندي سابوري طبيب المنصور كان فيلسوفا كبيرا علت منزلته عند المنصور لأنه كانت له زوجة عجوز لا تشتهي الاتفاق عليه فعهد المنصور اليه بثلاث جوار حسان فردهن وقال : اني في لا أستحي أن أتزوج غير زوجتي ما دامت حية . فأعجبه حبه حتى على وزنه مرة من ذهب المنصور فحمله على قدر العمر وخرج به ماشيا يبشر من صادفه بحكمة الحكيم في رجوعه الى بيته بدفن مع زوجته حتى مرض بعد ذلك بعلة فقال . رضيت أن أكون مع زوجتي وأمر المنصور بالامساك عن زيارة البيت ومن [illegible]

مدافن آبائه كما طلب . ثم سأله عمن يخلفه عنده فأشار الى عيسى بن شهلا تلامذته فأخذه المنصور . وكان جيورجيس فطلق يؤذي القسوس والبطارقة ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال منهم رغائبه فشعر الخليفة بذلك فطرده

وممن حظي عند المنصور نوبخت المنجم وولده أبو سهل وكانا فارسيين على مذهب الفرس ثم كانت ذرية مسلمة لأبي سهل وكانوا جميعاً منجمين لهم شهرة في علوم الكواكب فائقة

وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي توفيل بن توما النصراني المنجم وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان . وله كتب في التاريخ جليلة ونقل كتاب أميروس الى السريانية بأفصح عبارة

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب وجبريل ولده ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني . ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة طبية وغيرها وخدم الرشيد ومن بعده الى المتوكل . وكان يعقد في داره مجلساً للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع في بيت للمذاكرة في العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل ما يجتمع في بيت يوحنا بن ماسويه

وممن علا قدره في زمن المأمون يوحنا البطريق . ولى المأمون اقامه كذلك أميناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة . وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور وسابور ابنه وكانا نصرانيين . وولي سابور بن سهل بيمارستان جند يسابور

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيباً عند المعتصم ولما مات جزع عليه جزعا شديداً وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى

وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوماً فأجلسه بجانبه وكان

عليه دراعة حرير رومية بها فتق فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل الى النيفق (هو ما اتسع من الثوب) ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل : بماذا تعلمون أن الموسوس (المصاب بخبل فى عقله) يحتاج الى الشد ؟ فقال بختيشوع : اذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه . فضحك المتوكل حتى استلق

وفي أيام المتوكل اشتهر حنين بن اسحق النصراني العبادي وهو من أشهر المترجمين لكتب ارسطو وغيره وامتحن المتوكل صدقه فظهرت له عزيمة لا تفل فأقطعه اقطاعات واسعة . وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة فى زمن المأمون وهو فتى فكلفه بترجمة الكتب وكان يعطيه وزن مايترجم ذهباً . وكانت بينه وبين الطيفوري النصراني محاسدة أفضت الى طلب الحكم على حنين في مجلس الاساقفة بالحرم من الكنيسة فمات غماً لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة وهذا الطيفوري أيضاً كان من المقربين عند الخلفاء

ومن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري كان متفنناً في جميع العلوم العقلية أخذ عنه أبو نصر الفارابي وانتهت اليه الرياسة في بغداد وكان من أهل دير قنى ونشأ فى مدرسة ماري وقرأ على روفايل وبابا بن الراهبين اليعقوبيين .

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة الاسلام وهو نصراني طلبه الخلفاء الى بغداد لأجل الترجمة ثم يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي انتهت اليه الرياسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته

وقرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي

ومنهم أبو الفرج بن الطيب فيلسوف عالم . قالوا كان كاتب الجاثليق ومتميزا في النصارى ببغداد وكان يقرئ صناعة الطب في البيمارستان العضدي وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته وله كلام فيه

وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت بن قرة الحراني الصابيء من طائفة الصابئين المعروفة وتربى في بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكي المشهور وبلغ في علوم الفلسفة مبلغاً لم يدانه فيه غيره وله تآليف كثيرة في المنطق والطب والرياضيات وبلغ عند المعتضد مقاماً تقدم فيه عنده على وزرائه . وولد ثابت هذا سنة احدى عشرة ومئتين بحران . ثم كان ابناه ابراهيم وسنان على قدم أبيهما . ومن حفدته أبو الحسن ثابت بن قرة . وكان ثابت وابراهيم وسنان صابئين ولهم من المنزلة ماعلمت ومدحهم كثير من شعراء المسلمين وهم صابئة

ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسمهم صدر الاسلام . ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام . هل تريد أن أتم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الاسلام المسلمين الذين نالوا اسمى الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك . هل أنا في حاجة الى ذكر فيلسوف الاسلام أبي يوسف يعقوب الكندي وهو بصري الاصل . ابن الامير اسحق الذي كان أميرا للمهدي والرشيد على الكوفة وهو من ذرية الاشعث بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عالما بالطب والفلسفة والهيأة والحساب والموسيقى واشتغل بالترجمة كما اشتغل

غيره بها فترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منها وكانت له المكانة العليا عند المأمون والمعتصم وولده احمد . هل أنا في حاجة الى ذكر بني موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن الذين اشتغلوا في مساحة الكرة الأرضية ومعرفة محيطها وقطرها وما كان لهم من المنزلة عند الامراء والخلفاء ؟ أأذكر ابن سينا ومنزلته فى قومه ووصوله الى مسند الوزارة عند شمس الدولة ؟ أم أذكر الفارابي وما كان له من المكانة عند سيف الدولة بن حمدان .

لا ريب ان أبا العلاء المعري يصلح ان يكون رجلا ممن تعنى الجامعة بنشر تراجمهم وقد قال مالم يقل بمثله فولتير وروسو وقد مات مع ذلك على فراشه وقبره اليوم مزار يرحل اليه فى بلده

أظن انه يسهل بعد سرد ماعددناه أن يعرف قراء الجامعة ان الاسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد وهو ميزان احترام العلماء للعلم . ويسهل عليّ ان التمس العذر للجامعة بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث قيل انها حدثت للدين وما حدثت له . بل كان سبب حدوثها اما سياسة خرقاء . أو جهالة عمياء . أو تأويث بعض السفهاء . لا أطيل خوف الاملال . وانتقل الآن الى الامر الثالث وهو المقابلة بين طبيعة الدينين وهو أهم مما سبق ومما سيلحق

طبيعة الدين المسيحي وأصوله

(تمهيد) ظنت الجامعة ان الدين المسيحي فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ولذلك كان فى طبيعته التسامح . أما الدين الاسلامي فمن أصوله ان السلطان ملك وخليفة ديني وذلك مما يصعب معه التسامح في رأيها

ليس هذا بكاف فى بيان طبيعة كل من الدينين واستعدادها للتسامح مع العلم أو مع أية عقيدة تخالفها بل لابد من بيان أركان الدين وأهم أصوله التى ترجع اليها جميع الفروع وعنها تصدر الآثار الحقيقية

عند النظر فى أيّ دين للحكم له أو عليه فى قضية من القضايا يجب أن يؤخذ ممحصاً مما عرض عليه من بعض عادات أهله أو محدثاتهم التي ربما تكون جاءتهم من دين آخر . فاذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله فليؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الناس الى منشأ الدين ومن نلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه

واني أوجز القول فى ايراد الأصول الأولى التى وردت فى الاناجيل المعروفة الآن فى أيدي المسيحيين . وجاءت فى كلام أئمتهم الاولين . ثم ايراد ماجر اليه الأخذ بتلك الأصول بحكم طبيعة الدين

الاصل الاول للنصرانية الخوارق

أوّل أصل قام عليه الدين المسيحي وأقوى عماده له هو خوارق العادات . تقرأ الاناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلا على صدقه الا ما كان يصنع من الخوارق وعددها فى الأناجيل يطول شرحه . ثم انه جعل ذلك دليلا على صحة الدين لمن يأتي بعده فجعل لاصحابه ذلك كما تراه فى الاصحاح العاشر من انجيل متى وغيره . واذا تتبعت جميع ماقال الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات ، من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات . ولا يخفى أن خارق العادة هو الامر الذى يصدر مخالفاً لشرائع الكون ونواميسه . فاذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه فى الدين لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص

زاد الانجيل على هذا ان الايمان ولو كان مثل حبة خردل كاف فى خرق نواميس الكون كما قال فى الاصحاح السابع عشر من متي : « فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » وفى الحادى عشر من مرقس « ٢٣ لأني الحق أقول لكم ان من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر ولا يشك فى قلبه بل يؤمن ان مايقوله يكون فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم كل ماتطلبونه حينما تصلون فآمنوا ان تنالوه فيكون لكم »

فكل بحث يؤدي الى أن للكون شرائع ثابتة وان للعلل والشرائط أو الاسباب أو الموانع أحكاما فى معلولاتها أو ماشرطت فيه أو ما تسبب عنها أو ما استحال وجوده لوجودها كان مضاداً لهذا الاصل فى أي زمن وقد كان كل علم من علوم الاكوان لابد فيه من هذا البحث فكل علم مضاد لهذا الاصل . ثم ان صاحب الاعتقاد بهذا الاصل لايحتاج الى البحث فى الاسباب والمسببات لأن اعتقاده فى الشيء ان يكون وارادته لأن يكون كافيان فى حصوله فهو فى غنى عن العلم والعلم عدو لما يعتقد فما أصعب احتماله اذا جاء يزاحمه فى سلطانه

سقوط الاصل الثانى للنصرانية سلطة الرؤساء

وبعد هذا الأصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التي منحت للرؤساء على المرؤسين فى عقائدهم وما تكنه ضمائرهم . وقد أحكم هذه السلطة ماورد فى ١٦ ـ ١٩ من انجيل متى : « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات وكل ماتحله على

الارض يكون محلولا فى السموات» وفى ١٨ ـ ١٨ منه « الحق أقول لكم كل ماتربطونه على الارض يكون مربوطاً فى السماء . وكل ماتحلونه على الارض يكون محلولا فى السماء »

فاذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص انه ليس بمسيحي صار كذلك واذا قال انه مسيحي فازبها فليس المعتقد حراً فى اعتقاده يتصرف فى معارفه كما يرشده عقله بل عينا قلبه مشدودتان بشفتي رئيسه فاذا اهتزت نفسه الى بحث أوقفها قابض على تلك السلطة . وهذا الأصل ان نازع فيه بعض النصارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرنا طوالا

الاصل الثالث للنصرانية ترك الدنيا

وبعد هذين الاصلين أصل ثالث وهو التجرد من الدنيا والانقطاع الى الآخرة . تجد هذا الاصل فى الاناجيل وفي أعمال الرسل وكلما قرأت فى الكتب الأول عثرت به . وتجد الأوامر الصادرة بالانقطاع الى الملكوت والزهد من عالم الملك صريحة فى الاصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من انجيل متى . فمما جاء في السادس : « لاتقدرون ان تخدموا الله والمال ٢٥ لذلك أقول لكم لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس (الى أن قال) ٣٣ ولكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم ٣٤ فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره » وقال في التاسع عشر : « ٢٣ الحق أقول لكم انه يعسر ان يدخل غني ملكوت السموات ٢٤ وأقول لكم أيضاً ان مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله » وفى العاشر : « ٩ لاتقتنوا

ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ١٠ ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا الخ »

وحث على الرهبانية وترك الزواج وفي ذلك قطع النسل البشري قال في (١٩ من متى :) « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لاجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل » . ثم ان ملكوت السموات قد نيط أمره بالايمان المجرد عن النظر في الاكوان فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الاصل من النظر في أي علم والعلم لا دخل له في شؤن الآخرة والدنيا قد حرمت عليه . لاريب ان همه يكون في الصلاة وصرف القلب بكليته الى العبادة دون سواها وليس الفكر في الحليقة من العبادة عنده فان عبادة الانجيل ليست شيئاً سوى الايمان والصلاة

الاصل الرابع للنصرانية الايمان بغير المعقول

وبعد هذه الأصول أصل رابع وهو عند عامة المسيحيين أصل الأصول لايختلف فيه كاثوليك ولا ارثوذكس ولا بروتستانت وهو ان الايمان منحة لادخل للعقل فيها وان من الدين ماهو فوق العقل بمعنى مايناقض أحكام العقل وهو مع ذلك مما يجب الايمان به . قال القديس انسيلم : « يجب ان تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظار ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » فليس الايمان وهو الوسيلة الفردة الى النجاة في حاجة الى نظر العقل والكون وما فيه لايهم المؤمن ان يجيل فيه نظرة . وقول القديس « ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » نوع من التفضل على النزعة البشرية الى الفهم وعلى الميل الفطري الى تصور مايتعلق به الاعتقاد والا فمجرد الايمان كاف في الخلاص . ثم الويل كل الويل لطالب الفهم اذا

أدى اجتهاده في شيء يخالف ما تعلق به ايمانه فكأن من الفهم ان يخلق المؤمن لنفسه ما يملي به نفسه على ايمانه بغير المفهوم

(الاصل الخامس للنصرانية ان الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد)

ثم ينقسم الى الأصول الاربعة خامس وهو ان الكتب المعروفة بالعهد القديم والعهد الجديد تحتوي على كل ما يحتاج البشر الى علمه سواء كان متعلقاً بالاعتقادات الدينية والآداب النفسية والاعمال البدنية مما يؤدي الى نيل السعادة في الملكوت الأعلى أو كان من المعارف البشرية التي يتأتى للعقل الانساني ان يتمتع بها . قال تيرتوليان (وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي في نهاية القرن الثالث قبل ان تمرض عليه البدع الكثيرة) : « ان عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية ودليل صحة هذه الكتب قدمها وكونها أقدم من كتاب أميروس وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين وأقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها والزمن ناصر الحقيقة ثم تحقق النبوآت التي وردت فيها » ثم قال : « ان أساس كل علم عندهم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة وان الله لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية الى الدين فقط بل علمنا بالوحي كل ما أراد أن نعلمه من الكون فالكتاب المقدس يحتوي من البرهان على المقدار الذي قدر للبشر أن يناله من جميع ما جاء في الكتب السماوية من وصف السماء والارض وما فيها وتاريخ الامم مما يجب تسليمه مهما خالف العقل أو خالف شاهد الحس فعلى الناس ان يؤمنوا به أولا ثم يجتهدوا ثانيا في حمل أنفسهم على فهمه أي على تسليمه أيضاً كما ترى وقال بعض فضلائهم : انه يمكن أن يؤخذ من المعادن بأكمله من الكتاب المقدس

الاصل السادس للنصرانية التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الاقربين

ينظم تلك الأصول كلها أصل سادس وهو آخرها فيما أرى . ذلك الاصل هو الذي ورد في الاصحاح العاشر من انجيل متى وهو: «٣٤ لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الارض ما جئت لألقي سلاما بل سيفاً ٣٥ فاني جئت لأفرق الانسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها ٣٦ وأعداء الانسان أهل بيته . ٣٧ وقد صرح في عدة مواضع من الانجيل ان الاخلال بشيء من محبة المسيح أو بالانقياد الى جميع ما أوصى به موجب للهلاك وان كان قد جاء في مواضع كثيرة ان الايمان وحده كاف في الخلاص غير ان روح الشدة التي جاءت في قوله «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما الخ» هي التي بقي أثرها في نفوس الاولين من المعتقدين بالدين المسيحي وعفت على آثار ما كان يصح ان تستشعره النفوس من بعض الوصايا الأخر

نتائج هذه الأصول وآثارها

من هنا أعرض المسيحيون الأولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه اظهارا للغنى بالايمان والعبادة عن كل شيء سواهما وحجروا على هم النفوس ان تنهض الا الى الدعوة الى ذلك الايمان وتلك العبادة ووسائل الدعوة هي الايمان والعبادة كذلك فاذا نزعت العقول الى علم شيء من العالم وضعوا امام نظرها كتب العهد القديم وحصروا العلم بين دفاتها استغناء بالوحي عن كل عمل للعقل سوى فهمه من عباراته وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه بل انما يتاقى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفا من الزيغ عن الايمان السليم (البروتستانت رأوا أنه يجوز تفسير الكتاب لغير الكنيسة)

ثم ان القاء السيف ووضع التفريق بين الاقارب والاحبة انما جاء حافظاً لذلك كله فاذا خطر على قلب أحد خاطر سوء يرمي الى معارضة شيء من أمور الايمان المقررة وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر ولم يجز في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة كما أفهمه المسيح بعمله على حسب ماورد في الانجيل فقد قيل له: «٤٧ أمك وأخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك ٤٨ فأجاب وقال للقائل له من هي أمي ومن هم اخوتي ٤٩ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمي واخوتي». ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن يحيد عن شيء من معتقده ولا يخفى ان الشيء يكون بزرة ثم نباتاً ثم شجراً فانظر الى ماصار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة

وقر في نفوس المسيحيين ان السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم وتقرر عند القوم قاعدة «ان الجهالة أم التقوى» (وكثير من أهل الأديان مسيحيين ومسلمين لا يزالون يجرون على هذه القاعدة ببركة ما ورثوا عن أبناء الزمن الغابر) فحصروا التعليم في الاديار ومنعت الكنيسة ان ينشر التعليم بين العامة الا ما كان دعوة الى الصلاح وتقرير الايمان على وجه ظاهر. وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره. ظهرت ذات الذنب التي تنسب الى هالي في سنة ١٦٨٢ فاضطربت لظهورها اوربا ولجأوا الى البابا واستجاروا به فاجارهم وطردها من الجو فولت في الفضاء مذعورة من لعنته ولم تعد الا بعد خمس وسبعين سنة!!

لم يكن يسمح لأحد أن يبدي رأيا يخالف صريح ما في الكتاب وعندما أظهر بلاچ رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم أي ان الحيوانات كان يدركها الموت قبل ان يخطئ آدم بالأكل من الشجرة قام لذلك

ضوضاء وارتفعت جلبة وانتهى الجدال والجلاد الى صدور أمر امبراطوري بقتل كل شخص يعتقد بذلك . يقول المؤرخ : وهكذا عد الاعتقاد بأن الموت كان يزور الاحياء قبل آدم جريمة على الملك

أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية على عهد جول قيصر ثم ان تيوفيل بطريرك الاسكندرية اتخل أدنى الاسباب لاثارة ثورة في المدينة لاتلاف مابقي في مكتبة البطالسة بعضه بالاحراق وبعضه بالتبديد، قال أوروسيوس المؤرخ إنه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد ان نال تيوفيل الأمر الامبراطوري باتلافها بنحو عشرين سنة

ثم جاء بعد تيوفيل ابن أخته سيريل وكان خطيباً مفوها له على الشعب سلطان بفصاحته وكان في الاسكندرية بنت تسمى هيباتي الرياضية تشتغل بالعلوم والفلسفة وكان يجتمع اليها كثير من أهل النظر في العلوم الرياضية وكان لايخلو مجلسها من البحث في أمور أخر خصوصاً في هذه المسائل الثلاث : من أنا والى أين أذهب وماذا يمكنني ان أعلم . فلم يحتمل ذلك القديس سيريل مع ان البنت لم تكن مسيحية بل كانت على دين آبائها المصريين فأخذ يثير الشعب عليها حتى قعدوا لها وقبضوا عليها في الطريق وهي سائرة الى دار ندوتها وجردوها من ثيابها وأخذوها الى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقي منها ألقي في النار . يقول المؤرخ راوي هذه القصة : ولم يسأل سيريل عما صنع بهيباتي ولم تنظر الحكومة الرومانية فيما وقع عليها ولعل ذلك كان أول ماتقررت تلك القاعدة : « الغاية تشفع للوسيلة »

مامن عقيدة ظهرت في المسيحية وأريد تقريرها من فريق ونازع فيها

فريق الا وقد سالت لها الدماء فليراجع التاريخ لتمثل أرض مصر مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عندما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها لله أما كان ذلك في طبيعة الدين : ان من لم يتبع المسيح فهو هالك والهالك لا يستحق الحياة . ألم تر في الاصحاح الخامس من الأعمال ان قصة الرجل الذي باع جميع ما عنده وعندما جاء الى بطرس أعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئاً أخفاه عنه فاطلع بطرس على حقيقة الأمر وبخ الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة ثم جاءت امرأته وكان لها اطلاع على ما أخفى عنها ولم تنبه فوبخها بطرس وأخبرها بموت زوجها فماتت هي أيضاً .

فاذا كان الله يسلب حياة جزاء على اختلاس الرجل شيئاً من مال نفسه بنفسه هدية لرسل المسيح فكيف تكون الحياة من حقه اذا خالف خلفاء الله في الارض ونابذهم فيما يعتقدون

قال البابا أوسبان الثالث عند الكلام على مصير الذين يخالفون تعليمة الكنيسة وليكيه . « لا يجوز أن يرثك لأولادك الذين سرقت منهم تركة الحياة لهم من وجدان » فلم يقصر الجزاء على المجادلين ، بل تعداه الى أولادهم وعدم ترك الحياة لأولادهم يحتمون بها ضرباً من الاستحالة بحيث لا حق لهم في أن يعيشوا وقد حجد آباؤهم

مقاومة النصرانية للعلم

لا أجد في التاريخ ذكراً للعلم والفلسفة بدء ظهور المسيحية في مظهر القوة تحت سلطة القسطنطين وما بعده الا في أثناء المنازعات الدينية التي كانت تحصل فيها تارة بسلطان الملوك وأخرى بجمع المجامع وثالثة بسفك الدماء فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض . وإنما الذكر كل الذكر لما كان بين

المسيحية وماجاورها من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون وما كان يقع بين ملوك أوربا من التسافك فى الدماء باغراء رؤساء الكنيسة وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ وليس من موضوعنا الكلام فيه

ولكن أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر فى أوربا بعد ظهور الاسلام واستقرار سلطانه فى بلاد الأندلس واحتكاك الاوربيين بالمسلمين فى الحروب الصليبية

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين الى بلادهم وحملوا الى الناس أخباراً تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من ان المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة فلما قفل الغزاة الى ديارهم قصوا على قومهم ان أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة وذوي ود ووفاء وفضل مجاملة

ثم كان الخليفة الحكم الثاني جعل من بلاد الأندلس فردوساً كما قال الفيلسوف الاميركاني وكان اليهود والنصارى يتلاقون فى تلك البلاد تحت ظلال الأمن والحرية . قال بطرس المحترم الشهير انه رأى كثيراً من العلماء يأتون الى تلك البلاد لتلقي العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلترا وأولئك الذين يسعون الى طلب العلوم من أي بلاد جاؤا كانوا يجدون فيها رحباً وسعة وكان قصر الخليفة يشبه ان يكون مصنعاً للكتب — نسخ وتذهيب وتجليد الخ ماقال

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب ثم اكتشفت المطبعة

وسهل على الناس ان ينشروا آراءهم بعد أن تنبهت أفكارهم بما جلب اليهم رسل العلم الذين حملوه اليهم عن أهالي اسبانيا ومن حملوه مما جاورها . ثم انساب الى العقول شيء مما سماه الاوربيون فلسفة ابن رشد . عند ذلك اهتمت المسيحية بالأمر وأخذت تحارب كل مايظهر على ألسنة الناس أو يرد على أسماعهم مما يخالف ما في الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة . قال دي رومنيس : ان قوس قزح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده اذا أراد بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء . فجاب الى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت في النار . وقيل في علة الحكم : انه أراد الصلح بين كنيستي روما وانكلترا . وأي ذنب أعظم من هذا الصلح ؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بان قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش

انشئت المراقبة على المطبوعات وحتم على كل مؤلف وكل طابع ان يعرض مؤلفه أومايريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عين للمراقبة وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئاً لم يعرض على المراقب أو ينشر شيئاً لم يأذن المراقب بنشره . وأوعز الى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لاينشر مافيه شيء يومي الى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة (كأن الحكومة العثمانية على ماتنشر بعض الجرائد أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجري عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين)

انشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عند ماخيف ظهورهما

بسمي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً في جنوب فرنسا وايطاليا. انشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب توركماندا

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ففي مدة ثماني عشرة سنة — من سنة ١٤٨١ الى سنة ١٤٩٩ — حكمت على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنفذت ثم أحرقت كل توراة بالعبرية

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة « المقدسة » ؟ وسيلة واحدة هي ان يحبس المتهم وتجري عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة الى أن يعترف بما نسب اليه وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ . قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ ان يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد . وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة لكن ذلك لم يمنع الامراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول الى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره

اشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعاة الى كسبه ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها — في المدن . في البيوت . في السراديب . في الأنفاق . في المخازن . في المطابخ . في المغارات في الغابات . وفي الحقول . فوفت بما كلفت به مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين عملا بالقول الجليل « ما جئت لالقي سلاماً بل سيفاً »

كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم ، والقسوس في كنائسهم ،

والاشراف فى قصورهم ، والتجار بين بضائعهم ، والصناع فى مصانعهم ، والعامة فى بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا ، وايما ثقفوا ، ويوقفون أمام المحكمة وتصدر الأحكام عليهم يوم اتهامهم

قرر مجمع لاتران ان يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس فى الكنيسة (أي الاعتراف بالذنوب طلباً لغفرانها) تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لاجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الأحد فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه فى بيته ومايظهر فى أعماله بين أهله. فاذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئاً من الشبهة فى طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره الى المحكمة فينقض شهاب التهمة عليه فاذا سأل عن الشاهد الذي عول عليه فى اتهامه لايجاب وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد وهو من أهله حتى يعترف

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب فى قلوب أهل أوربا ماخيل لكل من يلمع فى ذهنه شئ من نور الفكر اذا نظر حوله أو التفت وراءه ان رسول الشؤم يتبعه وان السلاسل والأغلال أسبق الى عنقه ويديه ، من ورود الفكرة العلمية اليه ، وقال باغلياديس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد : « يقرب من المحال ان يكون الشخص مسيحياً ويموت على فراشه »

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ الى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة واربعين ألف نسمة منهم نحو مائتي ألف احرقوا بالنار أحياء

اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة

لما كان ابن ر[illegible] هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية فى

اوربا على زعم القسوس وكان ابن رشد استاذاً يتعلم عنده كثير من اليهود وقد اتهموا بنشر افكاره وآرائه ثم هو مع ذلك مسلم صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معاً فصدر الأمر فى ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية فى أيّ سن كان وعلى أي حال كان يجب ان يترك بلاد اسبانيا قبل شهر يوليو (تموز) ومن رجع منهم الى هذه البلاد عوقب بالقتل وأبيح لهم ان يبيعوا ما يملكون من عقار ومنقول بشرط ان لا يأخذوا فى الثمن ذهباً ولا فضة وإنما يأخذون الأثمان عروضا وحوالات . ومن ذا الذى يشترى اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن ؟ (يعني ان أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذى يتم فى يوليو) . وصدر أمر توركماندو ان لا يساعدهم أحد من سكان اسبانيا فى أمر من امورهم . وهكذا خرج اليهود تاركين كل ما يملكون ناجين بارواحهم على انه لا نجاة لكثير منها فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر

وفى فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من أشبيلية وما حولها — من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد اسبانيا قبل شهر ابريل (نيسان) وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الذى وضع لليهود . ولكن وضع للمسلمين شرط آخر وهو أن لا يذهبوا فى طريق يؤدي الى بلاد إسلامية ومن خالف فجزاؤه القتل . فهؤلاء المساكين تفوا جميعاً الى القتل ان لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالنصب مع العرى والجوع

الا يعجب القارئ اذا رأى ان برونو يحرق بالنار حياً بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لأنه قال بقول الصوفية فى وحدة الوجود وقال ان

هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة . الحمد لله رب العالمين

ظهر القول بكروية الأرض — ذلك الأمر الذي عرفه المسلمون وصار رأياً لهم في أول خلافة بني العباس ولم تتحرك له شعرة في بدن — فأحدث اضطراباً شديداً في عالم النصرانية ولا يسع هذا المقال ما وقع من الحوادث في شأنه

هل يصدق القارئ ان ماقصده كريستوف كولب من السفر في المحيط الاطلانطيق لعله يكتشف ارضاً جديدة كان من الأمور التي اهتمت لها الكنيسة وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريزيستوم واوغستين وجيروم وغريغوار وبازيل وانبرواز وعلى رسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والاسفار الخمسة ولم ينتج هذا العرض شيئاً . ولكن ساعده على ماقصد بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم . قال كريستوف كولب ان الذي أوحى اليه هذا القصد النبيل هي كتب ابن رشد . من هنا نفهم لم قامت له الكنيسة وقعدت .

ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الأصل الجليل « السلطة للقسوس والطاعة على العامة » كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدر الديني الذي يربط ويحل في الارض والسماء فهو باطل تجب مقاومته بكل مايستطاع . لهذا حكم على غاليلي الذي ذهب الى ان حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد : هل تدري ماذا حصل من المقاومة لادخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض ؟ اكتشفت هذه الطريقة

الطبية عند المسلمين في الاستانة ثم نقلتها الى اوروبا امرأة تسمى ماري مونتاجو سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها واحتيج في تعضيدها الى التماس المساعدة من ملك انكلترا وعادت هذه الشدة في المعارضة عندما اكتشفت طريقة تطعيم الجدري

مقاومة تسهيل الولادة : أيّ مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لاتحس بألم الطلق . اكتشاف أميركاني رأت حضرات القسوس فيه انه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها في سفر التكوين (إذ جاء في الاصحاح الثالث منه : « وقال للمرأة تكثيراً اكثر اتعاب حملك بالوجع تلدين اولاداً »)

مقاومة السلطة المدنية وحرية الاعتقاد : نشر البابا منشوراً في سنة ١٨٦٤ جاء فيه لمن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية او جوازان يفسر أحد شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة أو يعتقد بان الشخص حر فيما يعتقد ويدين به ربه . وفي منشور له سنة ١٨٦٨ ان المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وافكارهم ودعا الروم الارثوذكس والبروتستانت الى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة بروسيا والبابا في عزل استاذ في إحدى الكليات رأى رأياً لا يروق للحزب الكاثوليكي فحرمه البابا وطلب من الحكومة عزله وكانت إحدى المعضلات السياسية غير ان عزيمة بسمارك نصرت مدنية القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة وأبقت الاستاذ وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية

مقاومة الجمعيات العلمية والكتب : لا أذكر الجمعيات العلمية (الاكاديميات) التي النيت والاجتماعات التي عطلت لا لشيء كان فيها سوى هداية البشر الى منافعهم وتنوير بصائرهم بكشف ما احتجب عنهم من سر الخليقة بالبحث النظري ومن الطريق العقلي من غير استشارة المسيطر الالهي وهو الكنيسة . ولكن أذكر شيئاً واحد وهو ان الكردينال اكسيمنيس أحرق في غرناطه ثمانية آلاف كتاب بخط القلم فيها كثير من ترجمة الكتب المعوّل عليها عند علماء أوربا لذلك العهد

البروتستانت اوالاصلاح

ربما يقول قائل ان هذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ولكن قد قام في المسيحية مصلحون يرون إرجاع الدين الى أصل الكتب المقدسة ويبيحون لعامة أهل الدين ان ينظروا فيها ويفهموها وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول ومن عهد ظهور الاصلاح والرجوع الى أصول الدين الأولى بزغت شمس العلم بالمغرب وبسط للعلم بساط التسامح وذلك لا يمكن أن يكون الاجريا مع طبيعة الدين

لا أذكر في الجواب عن ذلك الا ما ذكر البروتستانت أنفسهم في تاريخ الاصلاح : استمرت عقوبة الموت قانونا يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفه وقد أمر كلفان [1] باحراق سيرفيت في جنيف لأنه كان يعتقد إن الدين المسيحي كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع نيقه . وكان يقول : ان روح القدس ينمش الطبيعة بأسرها . فكان جزاؤه على هذا ان شوي على النار حتى مات وهكذا أحرق فايتي في تلوز سنة ١٦٢٩

(١) كلفان هو الزعيم الثاني للبروتستانت ولوتر الأول

كان لوتير أشد الناس أنكارا على من ينظر في فلسفه ارسطو وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب ونحو ذلك من الألقاب التي لا بأس بها اذا صدرت من أهل الغيرة على الدين في طريق الدفاع عنه !! وكان كلفان أقل شتما للفيلسوف من لوتير لكنه لم يكن أحسن ظنا به ولا أوسع صدرا لمن يطلع على شيء من كتبه. وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف «المعلم الاول» فتأمل الفرق بين الفريقين !!

قالوا : البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم الكتب المقدسة وبابطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الاخروية وابطال عبادة الصور . ولكنهم لم يغيروا شيئاً من الاعتقاد بان الكتب المقدسة هي نبراس الهداية في طريق العلم البشري كما انها منبع نور الإيمان بالدين الالهي وانه لا يباح للعقل أن ينساق في نظره الى ما يخالف شيئاً مما حوته وأنه لا حاجة الى شيء من العلم وراء ما ورد فيها . وبالجملة انهم لم يبطلوا أصلا من الأصول الستة التي تقدمت إلا أنهم قالوا بمنع غلو الرؤساء في سلطتهم المبنية على الاصل الثاني في سابق قولنا

قالوا : ولهذا لم يكن مذهب الاصلاح اخف وطأة على العلم ولا أفضل معاملة له من الكاثوليك لان كلا المذهبين يرجع الى طبيعة واحدة (وهي القائمة على الاصول الستة) ولم يكن لاهل النظر العقلي جزاء في كلا المذهبين الا القتل وسفك الدم

لو كنت ممن يحب الجدال في الدين لمددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحي ما تضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية واضطهادات الكنيسة « ما أهون الدم على من يمثل في عبادته اكل

الدم وعلى من يعتقد ان خلاص العالم الانساني من الخطيئة انما كان بسفك الدم البريء على يد المعتدي الاثيم» لكني في بحثي هذا لا أريد ان استعمل قوة الخيال، ولا أن أذكر ما يعد من قبيل الجدال، وانما آتي بما هو حكاية حال، ليس للناظر فيها مقال،

الفصل بين السلطتين في المسيحية

بقي علينا الكلام فيما جعلته الجامعة أساساً للفصل بين السلطتين الدينية والملكية وبه كانت طبيعة الدين المسيحي ادعى الى التسامح مع العلم في نظرها . لو سلمنا أن في تلك العبارة معنى الفصل كما قالت الجامعة وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السلطة الدينية فاذا يفيد الفصل اذا كان دين الملك نفسه يقضي عليه بمعاداة العلم ؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما يملي نفسه مما فيه نجاته الروحية على مطالب الملك ؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قربانا لسلطان عقيدته . هب ان مصالح الملك تكون دائماً أغلب على النفس من حكم العقيدة وقاهر الايمان والوجدان وقد أقام الدين سلطتين منفصلتين احداهما تحل وتربط في الارض وفي السماء فيما هو من خاصة الدين والأخرى تحل وتربط في الأرض فيما هو من خصائص الدنيا . أفلا يكون هذا الفصل قاضياً بتنازع السلطتين وطلب كل واحدة منهما التغلب على الأخرى فيمن تحت رعايتهما معاً ؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف في أبدانهم وأموالهم بل وفي عقولهم أيدعي الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفاني اذا كان ذلك التصرف مخالفاً لما جاء في كنز المعارف وهو الكتب السماوية وتأويل الرؤساء الروحيين وسننهم فاذا همت هذه السلطة بالمعارضة أفتصبر الأخرى ؟ هذا هو الذي وقع

في العالم المسيحي منذ ظهرت سلطة الدين

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها والسلطة الدينية إنما تستمد حكمها من الله ثم تمد نفوذها بتلك القوة الى أعماق قلوب الناس وتديرها كيف تشاء. والملك لا قوة له الا بأولئك الناس المغلوبين للسلطة الدينية ؛ لا يتأتى للملك أن يغالب تلك القوة الا بعد ان يتناول من الوسائل مالا يعد لإضعاف سلطتها . نعم هذا الفصل يسهل التسامح لو كانت الأبدان التي يحكمها الملك يمكنها ان تأتي أعمالها على حدة مستقلة عن الأرواح التي تحيا بها والأرواح كذلك تأتي أعمالها بدون الأبدان التي تحمل قواها

ثم هل هذا هو معنى قول الانجيل ؛ القصة على ماجاء في الانجيل أن بعض المرائين أراد أن يتسقط المسيح ليأخذ عليه مايتم به فسأله : أيجوز أن نعطي جزية لقيصر ؛ فأجاب لم يجربوني ائتوني بدينار لأنظر اليه . فأتوه بدينار فقال : لمن هذه الصورة والكتابة ؛ قالوا له لقيصر فقال : اعطوا مالقيصر لقيصر وما لله لله . فمعناه الظاهر من سياق القصة أن صاحب السكة التي تتعاملون بها اذا ضرب عليكم ان تدفعوا منها شيئاً فادفعوه له أما قلوبكم وعقولكم وجميع ماهو من الله وعليه طابع صنعته فلا تعطوا منه لقيصر شيئاً . والعلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع الله فلا يمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية الدينية . فأي تسامح مع العلم في هذا

اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية

هذا الذي عرضناه من طبيعة الدين المسيحي وأوردناه من مشاربه

فيما بعد نشأته وما وقع من حوادث أهله مع طلاب العلم ورواد المعارف في كل زمن الى مايقرب من أيامنا هذه كل ذلك مأخوذ من تاريخهم الذي كتبوه عن أنفسهم ومن نصوص كتبهم الدينيه التي يتوكؤن عليها فيما ذكرنا من سيرتهم وأعمالهم

أما رأيي ورأي أهل العقيدة الصحيحة من المسلمين فى المسيح عليه السلام ودينه فهو على غير مارآه القارئ . انا نعتقد ان المسيح روح الله وكلمته ورسوله الى بني اسرائيل بعث مصدقا لما بين يديه من التوراة وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد فى شؤن معاشهم ومعادهم ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التى وهبهم الله تعالى إياها بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها ولا يشكر حق الشكر الا باستعمالها جميعها فيما أعدها الله له . والعقل من أجل القوى بل هو قوة القوى الانسانية وعمادها والكون جميعه هو صحيفته التي ينظر فيها وكتابه الذى يتلوه وكل مايقرأ فيه فهو هداية الى الله وسبيل للوصول اليه . وكل ماصح عندنا عن السيد المسيح لايخالف شيء منه هذا الذى نعتقد . فان صح عنه شيء يكون فى ظاهره مخالفة لهذه الأصول أمكننا تأويله حتى يرجع معناه اليها أو وكلنا الامر فيه الى الله وقلنا « لاعلم لنا الا ما علمتنا » .

الدين دين الله وهو دين واحد فى الاولين والآخرين لاتختلف الا صوره ومظاهره . وأما روحه وحقيقة ماطولب به العالمون أجمعون على ألسن الانبياء والمرسلين فهو لايتغير — إيمان بالله وحده وإخلاص له في العبادة ومعاونة الناس بعضهم لبعض فى الخير وكف أذاهم بعضهم عن بعض ماقدروا . وهذا لاينافي الارتقاء فى الدين بارتقاء عقول البشر

واستعدادهم لكمال الهداية . ونعتقد ان دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول ومن أهم وظائفه ازالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب ودعوتهم الى الاتفاق والاخاء والمودة والائتلاف وهذا ماعمل عليه المسلمون قرنا بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالاسلام

فاذا سأل سائل: اذا كان ذلك الذي قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الأوربيين أنفسهم في منافاة طبيعة الدين للعلم واشتداده في معاداته فما هذا الانقلاب الذي حصل في أوربا وما هذا التسامح الذي يتمتع به العلم اليوم في أقطارها؟ فجوابه في الكلام على الامر الرابع مما ذكرت الجامعة وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الاسلامي وما يليق أن يكون له مع العلم وما انجر اليه الحال بمقتضى تلك الطبيعة وما عرض عليها مما سترها وحال بينها وبين أثرها في أخريات الأيام؟ وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى

باب الاسئلة والاجوبة

(١س) تحفة المتصوفة من الشيخ عبد الله عبد الرحمن بالقنايات : قال بعد كلام يعرّض فيه بعلماء التقليد وعدم الثقة بهم ويثني فيه على المنار ما نصه

« ما يرى سيدي فيمن نطق بالشهادتين أو بطلاق امرأته أو بأيّ عقد يحتاج في اعتباره الى صراحة اللفظ نطق به كما تصنعه هذه الفرقة (المتصوفة) في ذكرهم وأريد غمغمتهم . اهو إسلام صحيح ، أو طلاق صريح . أو عقد معتبر شرعا؟ فان قلتم بصحته كلية فما هذا الذي ينكره الناس على هذه الطائفة ؟ وان رأيت غيره فأي شيء هو ؟ ألغوٌ من الكلام . لايثبت به إسلام ، ولا يعطي ما يعطيه اللفظ الصريح من المعاني »

(ج) الغمغمة هي النطق لابيان فيه وأصلها أصوات التيران عند الذعر وتقع من الناس اضطراراً يقال : غمغم الأبطال عند الكفاح في الحرب . وهذا هو الذي